الأقلام

٢

WWW.ATTAWEEL.COM

تصدر عن
الشؤون الثقافية العامة
- وزارة الثقافة والاعلام
الجمهورية العراقية

السابع عشر
العدد الثاني
ـ ١٩٨٨ م

أسرار البحر

دِرَاسَة تَعْبَوِيَّة لِمَعَارِك مَا بَعْدَ القَادِسِيَّة

القسم الثاني

"فتح المدائن : صفر ١٦هـ/آذار ٦٣٧م"

ماجد مصطفى

الاعدادية المركزية للبنين - الموصل

تمهيد : - سبق وتحدثنا في القسم الاول من هذا المقال ، حول المعارك التي تلت القادسية مباشرة في كلّ من معركة (بُرس وبابل والدير وكوثى وساباط وبُهرسير - سلوقية -) ولاحظنا كيف ان ارتال سعد المتلاحقة استطاعت أن تحقق الانتصارات تلو الانتصارات ، على قوات الفرس المتراجعة الى الوراء . حتى انتهى الامر بحصار الفرس في (بهرسير - سلوقية -) الواقعة على ضفة دجلة الغربية ، ثم فتحها من العرب المسلمين ، الأمر الذي استدعى عبور الفرس الى (المدائن - طيسفون -) الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة . وأشرنا الى أن الأمل في استرجاع ما خسره الفرس في العراق يراودهم مابقيت عاصمتهم حية ، فكان لابد من ضربة قاصمة تفتح على أثرها تلك العاصمة التي سيترتب على فتحها تدهور معنوية الفرس اكثر من ذي قبل ، الامر الذي سيعجل في سير امبراطوريتهم المريضة حثيثاً نحو الممات . وكما لاحظنا في استعراضنا للمعارك التي سبقت هذه المعركة - في القسم الاول - سنلاحظ هنا ايضاً ان العرب المسلمين سبقوا زمانهم بكثير في عبقريتهم العسكرية التي تجلت بوضوح في وضع الافكار السوقية العامة ، وتنفيذ الخطط التعبوية البارعة ، والتفنن في استعمال الاسلحة العسكرية المختلفة . لابل سنلاحظ هنا أن العرب برعوا في التكيف مع مسارح وميادين القتال غير المعتادين عليها في جزيرتهم ، فقاتلوا في البر والنهر في عملية جريئة تعتبر من أعظم الاعمال العسكرية حسب مفاهيم زمانهم ، وترتقي افكار الاعداد لتنفيذها لتضاهي المفاهيم العسكرية لعصرنا الحديث . ولا عجب في هذا فالعرب مفتحو العقول ، وحاملو لواء الدين ومشعل العلم الى مشارق الارض ومغاربها .

أ) قرار حاسم في أصعب المواقف : -

بعد ان فتح سعد بن أبي وقاص (بهرسير) واراد العبور الى المدائن القصوى (طيسفون) التي لايفصلها عن (بهرسير) سوى نهر دجلة - انظر الخارطة - وجد (سعد) أن الفرس كانوا قد «ضموا السفن فيما بين البطائح وتكريت» ومعنى ذلك ان الفرس كانوا قد جمعوا السفن على مسافة مائة وثمانين كم جنوبي المدائن ، ومائة وثلاثين كم شمالها فيما بين البطائح وتكريت وسحبوها الى الشاطيء الشرقي لدجلة ، وأحرقوا الجسر الذي يربط بين (بهرسير) و (طيسفون) فأقام سعد في بهرسير أياماً من شهر صفر يفكر في كيفية العبور حرصاً منه على ارواح المسلمين .

ورغم ماينقله البلاذري من أن المسلمين عندما انتهوا الى دجلة

WWW.ATTAWEEL.COM

قالوا «ما تنظرون بهذه النطفة أن تخوضوها ؟ فخضناها فهزمناهم» ورغم مايشير اليه أن سعداً «لم يجد معابر فدل على مخاضه عند قرية الصيادين فاخاضوها الخيل . » فان البلاذري نفسه يشير في رواية اخرى الى أن سعدا والمسلمين اغتموا إذا لم يجدوا الى العبور سبيلا «فانتدب رجل من المسلمين فسبح فرسه وعبر فسبح المسلمون ، ثم أمروا اصحاب السفن فعبروا بالاثقال ، فقالت الفرس : والله ما تقاتلون إلا جناً فانهزموا . »

والواقع ان رواية البلاذري الاخيرة هذه تؤكد ان العبور كان ساقاً ، وليس من مخاضة ضحلة ، بل ان روايته السابقة التي تشير الى ان سعداً لم يجد معابر فدل على مخاضة عند قرية الصيادين . . فيها الدليل على هذا المكان ربما كان انسب مكان للعبور ، وهذا يؤكد ان النهر كان عميقاً ، ومعنى ذلك ان المكان المخاضة هذه ليس ضحلاً بل انه الأنسب للعبور

ورغم ان الطبري ينقل بعض هذه الروايات التي اشار اليها البلاذري ، إلا انه وابن الاثير وقبلهم جميعاً الواقدي يؤكدون ان سعداً عندما اتى اليه علجٌ فارسي فدله على مخاضة يخوض فيها دجلة الى صلب الوادي تردد واب ، ثم يشير الى ان الفيضان جاء متقدماً في تلك السنة ، وانها كانت مطيرة وكثيرة المدود ، فقوي التيار وفاجأهم المد ، وعظم الموج وكانت دجلة تقذف بالزبد .

ويكاد يتفق المؤرخون المحدثون من عرب واجانب الى ان العبور تم في نهاية شهر اذار او في شهر نيسان سنة ٦٣٧م / صفر ١٦هـ . حيث كانت دجلة في حالة فيضان عظيم . فالمعروف ان نهر دجلة يفيض في الربيع ، عندما تذوب الثلوج في الاناضول ، ومما لاشك فيه ان مثل هذا الفيضان يغطي حتى الجزر الصغيرة التي تقع عبر النهر ـ ان وجدت ـ والواقع ان فيضان نهر دجلة كون مانعاً عسكرياً رهيباً امام العرب حتى ان (ميور Muir) يصف عملية العبور بانها «مغامرة يائسة» ويشكك (كلوب Glubb) ـ كعادته ـ بهذا الامر فيقول بان سلمان الفارسي اكد وجود المخاضة ... علماً بان لااحد من المؤرخين الرواد اشار الى ان سلمان الفارسي اكد وجودها مطلقاً . الا ان كلوب يقف موقف المتردد امام الحقيقة فيقول «وليس من الواضح تماماً فيما إذا خاض الفرسان عبر المخاضة ام سبحوا . » ولكنه يعود الى جادة الصواب فيقول «وقد يدهش» من لايعرف البدو إذا ما قلت لهم بان العرب الذين كانوا يعيشون في صحراء تكاد تخلو من الماء هم سباحون ممتازون . واشهد بانني رأيت رجالاً من وسط الجزيرة العربية يسبحون في نهر الفرات . » ثم يشير كلوب (Glubb) في الهامش ـ الى ان ميور (Muir) نقل عن شيزني (Cheney) ان جيش تيمورلنك عبر نهر دجلة سنة ١٣٩٢م قرب بغداد . وهو بهذا يعزز رأي الاخرين القائل بان العبور تم سباحة ، علماً بان (كلوب) يشير في نفس المكان بان العبور تم في اذار او نيسان وهو موسم الفيضان ـ حيث تزداد مياه دجلة بسبب ذوبان الثلوج على الاناضول !! وهذا القول يرجح امكانية العبور سباحةً .

ومهما يكن من امر فقد نام سعد ليلته مشغول الفكر مضطرب الوجدان حائراً في كيفية العبور ، فرأى في منامه ان خيول العرب تقتحم لجة النهر وتعبر دجلة في فيضان عظيم ،فعزم سعد على العبور وتحقيق مارأى ، فجمع الناس وبعد ان حمد الله واثنى عليه قال : «إنّ عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه ، وهم يخلصون اليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون ان تؤتوا منه فقد كفاكموهم اهل الايام وعطلوا ثغورهم وافنوا ذادتهم . وقد رأيت من الرأي ان تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل ان تحصركم[٥] الدنيا ، الا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم . » فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .[٦]

ب) استطلاع النهر ووضع خطة العبور : ـ

وهكذا وبعد ان وافق الناس سعداً على رأيه ، توقف سعد بقواته عند طرف دجلة ، وارسل مفارز الاستطلاع لدراسة النهر وتحديد : ـ

أ) عمق النهر والاماكن التي يمكن العبور منها وسرعة تيار النهر

ب) طبيعة ارض النهر ، واماكن مرور المشاة[٥] والفرسان .

ج) اطراف النهر التي يمكن العبور منها .

لقد كان سعدٌ معروفاً بتطبيق مبدأ (المباغتة) في معظم الحروب التي خاضها . وهذا ماراد أن يفعله الآن في عبور دجلة ومباغتة العدو الذي كان يعتقد بان عملية العبور مستحيلة ، واذا ما جرت فالأخفاق مصيرها حتماً ، وبعد ان درس سعد الموقف جيداً قرر ان تتم عملية العبور كما يلي : ـ

١) تشكيل كتيبة الاهوال : ـ وهذه طليعة قوات العبور ، على أن تتألف من المتطوعين وجمع سعد العرب وقال : «من يبدأ ويحمي

لنا الفراض (رأس الجسر على الشاطىء الاخر) حتى تتلاصق به الناس لكيلا يمنعونهم من الخروج[٥]» . فتطوع من ذوي البأس (عاصم بن عمرو) وتطوع بعده ستمائة من اهل النجدة ، فجعلهم سعد تحت قيادة عاصم . ورغم ان سعداً كانت لديه كتيبة اسمها (الخرساء) فيها فحول الفرسان كالقعقاع بن عمرو ، وحجال بن مالك ، والربيل بن عمرو ، لكن سعداً اراد أن يكون هذا الاقتحام تطوعاً خالصاً ليس فيه تكليف .

٢) ان يقوم عاصم بن عمرو ، بعد تفحصه النهر باختيار رأس الطليعة من كتيبة الاهوال تكون على شكل مفرزة من الفدائيين ، مهمتها أن تسبق كتيبة الاهوال وتمهد لها العبور الى الجانب الاخر من دجلة . وقد فعل عاصم ذلك حيث جمع لفراد الكتيبة وقال «من يتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا ؟ » فتطوع للعمل بهذه المهمة (ستون رجلاً) مكونين (الرائدة) المطلوبة فجعلهم عاصم نصفين على خيول اناث وذكور ليكون أسلس لعوم الخيل .

٣) يتقدم عاصم برأس طليعته ثم يندفع بعده ما تبقى من الكتيبة في دجلة .

٤) تقوم كتيبة (الخرساء) التي يقودها القعقاع بن عمرو باسناد كتيبة الاهوال وحمايتها من الخلف ، بعد اكمال عبور الكتيبة الخرساء واكمال حماية الفراض .

٥) تقوم بقية قوات العرب المسلمين باقتحام النهر وعلى رأسها سعد بن ابي وقاص[٦]

٦) يسيطر العرب على السفن الفارسية المتواجدة على الشاطىء الاخر كافة ويرسلونها الى الجانب الغربي كي تقوم بنقل من تبقى من المسلمين ونقل الامدادات والذخيرة الموجودة في الساقة .

ولدى هنا جملة ملاحظات أرى ضرورة عرضها : -

١) وهم بسام العسلي عندما جعل رأس الطليعة المتكونة من ستين رجلاً (فارساً) بقيادة سعد ، حيث انها كانت بقيادة (عاصم بن عمرو) . والملاحظ ان العسلي في ص[٣٣] ينسب دور عاصم جميعه الى سعد ، وقد يكون ذلك باعتبار نسبة القائد المرؤوس الى القائد العام

٢) وهم ميور (Muir) حيث قال ان الستمائة فارس «المنتخبون» رتبوا او صفوا في مجموعات ستينية (على شكل ستين فارساً) ويبدو أن رأس الطليعة المؤلفة من (ستين متطوعاً) هي التي اوحت لميور بهذا الوهم ، خاصة وان المؤرخين الرواد يذكرون ان عاصماً جعلهم نصفين على خيول اناث وذكور ليكون اسلس لعوم الخيل .

٣) الواقع ان كتيبة الاهوال التي تشبه فرق (المغاوير) في زماننا ، اوتشبه فرق (الصاعقة) أو القوات الخاصة في جيوش اليوم ، القيت اليها مهمة مايمكن ان نسميه حسب مفاهيم عصرنا العسكرية بعملية «اقامة رأس جسر» وهذه العملية كانت تتطلب عبور نهر دجلة واعداد المكان اللازم لعبور بقية جنود العرب المسلمين وليست هذه العملية بالعملية السهلة ابداً - إذ تتطلب دقةً وجهداً كبيرين جداً حيث المفروض بقوة رأس الطليعة ان تقاتل في الجانب الاخر من النهر على ارض يمتلكها العدو ،ومسيطر عليها بكل امكانياته ، كما تتطلب تهيئة الجو المناسب لعبور بقية القطع العسكرية الاخرى ، ذلك الجو الذي يسعى العدو دائماً لارباكه وعرقلته .

٤) تتجلى العبقرية العسكرية العربية الاسلامية بأسمى صورها في هذا الاعداد للعبور . وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان العرب سبقوا زمانهم بمدة ليست يسيرة ، إذ ان ما خُطط له يتناسب تماماً مع ماوضعه قادة الحرب في عصرنا الحديث . واضافة الى هذا تجلى في العبور العربي الاسلامي الذكاء الذي يكون الانسان باشد الحاجة اليه ، في ميدان الحروب ،وخاصة عندما يشتد وطيسها ، فما قام به عاصم من جعل الخيول الاناث تتقدم امام الذكور التفاتة بارعة تدل على اصالة راي .

٥) ان توخي عنصر المفاجأة الذي وضعه سعد نصب عينيه ، باستغلاله قناعة الفرس باستحالة عملية العبور ، نجح نجاحاً منقطع النظير - كما - سنرى وهذا دليل على براعة سعد في هذا الجانب .

ج) معجزة العبور

١) الاشتباك النهري : -

عندما رأى الفرس الذين كانوا على الشاطىء الاخر مافعله العرب ، أعدوا لهم مثل ذلك ، واقتحموا النهر في محاولة نهرية دفاعية عن عاصمتهم المدائن ، وقد حدث الاشتباك بين القوتين والعرب المسلمون اقرب الى شاطىء المدائن . وهنا دوى صوت عاصم : «الرماح ! الرماح ! ، اشرعوها وتوخوا العيون» . قصد عاصم بذلك ان يوجه العرب رماحهم الى عيون خيول الفرس كي يقلعوها . الامر الذي يحدث ارباكاً في صفوف

العدو . لقد اختار عاصم السلاح واختار الأسلوب التعبوي المناسب فتطاعن العرب والفرس ونفذ العرب امر عاصم بالطعن في عيون الخيل ، فاستدار الفرس نحو شاطئهم والعرب ينالون عليهم بالرماح من الخلف حتى ان خيل الفرس اخذت تندفع بركابها مذعورة مسرعة نحو الشاطىء دون ان تستطيع ركابها السيطرة عليها . وهنا تتجلى عبقرية عاصم مرة اخرى ، حيث اختار السلاح المناسب والتعبئة المناسبة في الوقت المناسب ، وهذا توقيت يرقى في حقيقته ليصل الى ما اتفق عليه القادة العسكريون في عصرنا الحديث من ان اللحظة الحاسمة تتطلب اتخاذ القرار الشجاع والسيطرة على الاعصاب واعمال الفكر بلمحة خاطفة يترتب عليها تحقيق نجاح باهر .

لقد تصرف عاصم وهو في لجة النهر كتصرفه وهو يقاتل على رمال الصحراء ، والواقع ان المرء ليجد بعض الشبه بين معارك العرب البرية والبحرية . وهذه الحقيقة التي توصل اليها (عبد الرؤوف عون) ، رغم انها تبتعد قليلاً عما نحن بصدده حيث نرمز الى معارك العرب البحرية ونحن بصدد معركة نهرية . الاانها تشير الى امر واحد وهو ان التشابه موجود بين قتال العرب البري والنهري ، حيث يقول عون «لايكاد المرء يجد كبير فرق بين معارك المسلمين البرية ومعاركهم البحرية لانهم أمة صحراوية الاصل ، يعيشون في بحر زاخر من الرمال ، سفينتهم المفضلة فيه الجمال ، ويحسبون فيه حساب الرياح والعواصف والانواء ، وقد اتقنوا في رحبات صحرائهم طريقة الكر والفر والمبارزة بالرماح فوق صهوات الجياد ، لذا كانوا يحولون كثيراً من معاركهم البحرية الى معارك برية بان يقرنوا سفنهم بسفن الاعداء ... ويجعلوا من ظهورها ميداناً للتراشق بالسهام والتطاعن بالرماح ، والتصافح بالسيوف .» ويبدو مما يورده المؤرخون الرواد اضافة الى ما يذكره ابن الاثير ، ان قوة رأس الطليعة او الفدائيين المتكونة من ستين مقاتلاً ، والتي تقدمت في الطليعة هي التي لعبت الدور الاسبق في هذه العملية ، فوصلت اولاً الى الشاطىء الاخر ، ثم اكملت بقية الستمائة الدور بتعزيز قوة المقدمة .[٤]

٢)الخطأ العسكري الفارسي : -

والظاهر ان الفرس كانوا يرمون العرب المسلمين بالنبال من شاطئهم اثناء عملية العبور ، ولكن البلاذري والدينوري يشيران الى انهم لم يصيبوا من المسلمين غير رجل من طي اسمه (سليل بن يزيد بن مالك السُّنْبُسي) .[٥] لقد اخطأ الفرس في الخطة التعبوية للدفاع عن المدائن ، فلو انهم ثبتوا على شاطئهم يرمون المسلمين بنشابهم لكان اجدى لهم من اقتحام لجة الماء ، حيث لم تكن خيلهم في مستوى الخيول العربية ، ولامقاتلوهم في المستوى القتالي للعرب ، ولامعنوياتهم التي تجبرهم على الدفاع ، كمعنوية العرب المسلمين التي تدفعهم الى الهجوم . والمعروف في ميدان الحروب ان من المتعذر استعمال اسلحة الرمي والقذف مع اسلحة الالتحام اليدوي في آن واحد . وهذا ماجعل من الصعب على الفرس اصابة سوى رجل واحد من العرب . والظاهر ان وجود الفرس مع المسلمين في النهر في معركة تلاحم بالسلاح الابيض هو الذي حال دون ذلك . إذ كانوا يخشون من اصابة قومهم بسلاحهم . ويبدو ان الذي اوقع الفرس بهذا الخطأ الفاحش هو عامل المفاجأة الذي شل تفكيرهم عن اتخاذ القرار السليم .[٦]

٣) عبور سعد : - وكان سعد يرقب كتيبة الاهوال من الشاطىء الغربي لدجلة . وبينما كان ينظر الى حماة الناس وهم يقاتلون على الشاطىء الشرقي قال «والله لو كانت الخرساء . . فقاتلوا قتال هؤلاء القوم هذه الخيل لكانت قد اجزأت واغنت» فشبه كتيبة الاهوال لما رأى منها من الشجاعة براً ونهراً بكتيبة الخرساء التي جعل نزولها الى النهر بعد كتيبة الاهوال ، فلحقت بها وشاركت في تطهير المنطقة .

فلما رأى سعداً ان عاصماً استولى على الشاطىء الشرقي وتمكن منه اذن للناس بالعبور وقال «قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم» وتلاحق جنود العرب المسلمين يركبون اللجة «وان دجلة لترمي بالزبد وانها لمسودة» مما تحمل من الطمى ، وكان المسلمون اثناء العبور قد اتخذ كل واحد منهم رفيقاً له يتحدثون في مسيرهم ، كما كانوا يفعلون على الارض . وينفرد (خليفة بن خياط) بقوله ان عدد الذين عبروا مع سعد كان «اربع مائة» فاذا كان هذا العدد صحيحاً فمما لاشك فيه انه يدل على ان مجموعة صغيرة من المقاتلين عبرت مع سعد مكونة قلب القوة تتبعها مجموعات اخرى على التوالي ثم الاثقال والاحمال بالسفن التي استولى عليها العرب في الجانب الشرقي وارسلوها الى الجانب الغربي - كما سنرى - . وينقل الطبري عن (ابي عثمان النهدي) وصف عملية العبور

بقوله «طبقنا دجلة خيلاً ورجلاً حتى مايرى الماء من الشاطىء أحد ، فخرجت بنا خيلنا اليهم تنفض اعرافها لها صهيل ، فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لايلوون على شيء . . . »[٧] .

وكان الى جانب سعد في عملية العبور (سلمان الفارسي)فعامت بهم الخيل وسعد يقول «حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنّ الله وليه ، وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه ؛ إذا لم يكن في الجيش بغيٌ او ذنوب تغلب الحسنات . فقال له سلمان : الاسلام جديد ذُلّلت لهم والله البحور كما ذُلل لهم البر . اما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه افواجاً كما دخلوه افواجاً . »[٨]

وغطى المسلمون سطح الماء وهم يتبادلون الحديث وخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً ولم يغرق منهم احد . يقول ابن كثير «بان الرسول صلى الله عليه وسلم دعا لسعد فقال (اللهم اجب دعوته وسدد رميته) والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر ، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم . » ويذكر المؤرخون الرواد بان احد العابرين من العرب كان إذا تعب من السباحة اثناء العبور فيجد تحت قدمه (جرثومة ـ ارض ناشزة ـ) يرتاح عليها . . . ولذا اطلق عليه الرواة (يوم الجراثيم) .

ويبدو من ذلك ان الارض في بعض مناطق النهر كانت غير بعيدة الغور ، بسبب وجود بعض الجزر النهرية التي كانت تعترض وادي النهر بين آونة وأخرى ، والتي غطاها الفيضان ، فكانت مناطق استراحه لمن اعياه الامر . إلا ان (الدرة) يفسر هذا الامر باعتقاده ان الطبري قصد بذلك تركيز بعض الاخشاب في الماء ليستريح عليها السابح[٩] . وهذا امر بعيد الاحتمال بسبب قوة تيار النهر ، ولاسند له في المصادر المعتمدة ، ولم يقل به أحد ويشير الطبري وابن الاثير الى بعض الحوادث الفردية التي وقعت اثناء عملية العبور منها ان جميع المسلمين سلموا في عملية العبور إلا رجلاً من بارق يدعى (غرقدة)[١٠] سقط عن ظهر فرسه الشقراء التي كانت تنفض اعرافها من الماء والغريق يطفو على وجه الماء ، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه اليه والتقطه بيده واخذ يسحبه حتى عبر ، فقال البارقي ، وكان من اشد الناس «أعجزت الاخوات ان يلدن مثلك ياقعقاع ! » وكان للقعقاع فيهم خؤولة ولما نظرت الفرس الى العرب قد اقتحموا دوابهم في الماء وهم يتسابقون العبور تنادوا «ديران آمد ، ديوان آمد»[١١] وهي جملة فارسية معناها جاءالشياطين ، تعبيراً عن الذهول الذي اصابهم من اقبال العرب على عملية العبور[١٢] ودلالة على شدة خوفهم من المسلمين ، مما يدل على انهيار معنويات الفرس انهياراً كاملاً . وهكذا تصر المسلمون بالرعب .

٤) هلع وهروب : ـ

اعتقد يزدجرد ان حصوله على السفن وقطعه الجسر اضافة الى فيضان دجلة ، كلها عوامل فعالة ستعيق عبور المسلمين لمدة طويلة ، ان لم تجعل عملية العبور مستحيلة ، ولكنه تعلم من تجاربه مع العرب المسلمين انهم قضاء وقدر . وهذا تصرف تصرُّف المحتاط ، فلما سقطت (بهرسير) نقل امواله وكنوزه واهله الى المدائن ، وجعل بيت ماله في النهروان ، وارسل عياله الى حلوان على مسافة تزيد عن ٢٠٠ كم عن المدائن وبقي مطمئناً في قصره بالمدائن ، وقد اوكل امر المعركة الى (مهران الرازي) والى (النخير خان)[١٣] . وهكذا نقل يزدجرد بعض كنوزه مما خف حمله وغلى ثمنه الى حلوان ، تاركاً ما غلى ثمنه وصعب حمله في المدائن ، اضافة الى ما اعد للحصار من البقر والغنم والاطعمة . ولكن فرسان العرب فعلوها ، فاتخذوا من خيولهم مركبات برمائية ، وارعبوا بذلك جنود يزدجرد الى درجة جعلتهم يرددون بالفارسية «ديوان آمد» ويقول بعضهم لبعض «والله ماتقاتلون الانس ، وما تقاتلون إلا الجن »

ويبدو ان هذه المفاجأة (المباغتة) ارهبت يزدجرد فاضطرته الى الهرب تجاه حلوان . ويصف البلاذري طريقة هربه حيث يشير الى ان قومه دلوه من الشرفات الخلفية للقصر الابيض في زبيل (قفة او وعاء او جراب) فسماه النبط (برزبيلا) . ويفسر (كمال) هروب يزدجرد بهذه الطريقة بانه (يزدجرد) خشي الخروج من باب قصره ، إذ كانت واجهته شرقية ومدخله يكاد يواجه (بهرسير) حيث عبر المسلمون على بعد ثلاثة كيلو مترات منه ، والطريق مفتوح مما يترتب عليه وجود خطر عظيم على حياته . . .

فدلهُ قومه من الشرفات الخلفية لقصره بواسطة القفة . ولكن (الواقدي)يذكر ان يزدجرد كانت له (منظرة) في اعلى ديوان يشرف على ميدان القتال ،فلما وجد المسلمين يشقون الماء قال انهم مردة شياطين «ثم قام من منظرته ونزل من ديوانه وهرب ... »[١٤] .

وبينما كان الفرس يقاتلون على الشاطىء ، جاء رجل منهم فنادى «علام تقتلون انفسكم فو الله ما بقي في المدائن احد ، » فانهزموا واقتحمتها خيول المسلمين ولحق بهم سعد مع بقية الجيش .

فادرك اوائل المسلمين اواخر الفرس ومنهم رجل يعترض على طريق من طرقها يحمي مؤخرة اصحابه وهم يفرون ، فكان يضرب فرسه للاقدام فتحجم «ويضربها للهرب فتتقاعس ، فلحق به رجل من عسكر سعد يدعى (ثقيفاً) من بني عَدي بن طريف فضرب عنقه وسلبه . [١٢]

وهكذا يظهر لنا الاثر المعنوي الكبير للمفاجاة التي دبرها سعد في هذا المجال إذ ان نجاح المفاجاة ينشر الارباك ويحطم شجاعة العدو ، والامثلة على ذلك كثيرة وجميعها تظهر الى اي مدى يمكن للمفاجاة ان تضاعف النجاح «وليست المفاجاة التي اقصدها هي المفاجاة عند الاغارة التي هي جزء من الهجوم ، ولكنها ارادة مباغتة العدو وبالتدابير العامة التي نتخذها لاسيما بالطريقة التي توزع بها قواتنا . . . [١٣] »

٥) تقييم عملية العبور : ـ

لقد تمت عملية العبور دون ان يفقد العرب المسلمون رجلاً واحداً . وهذا امرٌ له قيمته العسكرية الهامة وفق مفاهيم مبادىء الحرب في عصرنا الحاضر . تلك المبادىء التي تجعل الهدف الاسمى للمعركة هو الحصول على النصر باقل ما يمكن من الخسائر ان عمل العرب المسلمين العسكري هذا يعتبر عملاً باهراً حقاً بمقاييس تلك الفترة التي كان الحصان فيها هو (برمائية) العرب الوحيدة التي اقتحم العرب بها لجة ذلك اليم الهائج . كما ان الناقد المنصف ـ في عصرنا ـ لطبيعة تلك الاحداث ، لابد ان يعتبر مثل هذا العمل عملاً باهراً حقاً ولا ادل على هذا من وصف الفرس للعرب العابرين بانهم (شياطين) . ولتاكيد ما ذهبت اليه استشهد هنا بشهادتين الاولى لرجل معاصر معروف في ميدان التاريخ العسكري هو الفريق الركن صالح مهدي عماش «وكانت عملية العبور قسراً في تلك العملية البارعة ، اخطر واعظم عملية حربية من قبل جيش بدوي لم يألف المياه ضد جيش كان الاول في زمانه ، فيعجز جيش الامبراطورية الفارسية عن الثبات والدفاع عن عاصمته وبلاطه . »[١٥] . اما ابن كثير فيقول «وكان يوماً عظيماً وامراً هائلاً ، وخطباً جليلاً ، وخارقاً باهراً ومعجزة لرسول الله (ص) خلقها لاصحابه ، لم ير مثلها في تلك البلاد ، ولا في بقعة من البقاع . . . »[١٦]

٥) في طرقات المدائن : ـ

وكان اول من دخل المدائن (كتيبة الاهوال) بقيادة عاصم ابن عمرو وتبعتها (الكتيبة الخرساء) التي كان يقودها اخوه القعقاع بن عمرو ومن ورائهم جيش سعد برمته ، واخذوا يتجولون في طرقها التي اقفرت من الناس دون ان يلقوا احداً[١٧] ولم يقع خلال تجولهم سوى حادثين نستشف منها حالة الاضطراب التي كانت على الفرس :

الحادث الاول : جرى لأحد فرسان الفرس :

«قال له قومه دخلت العرب وهرب اهل فارس »

فلم يلتفت الى اقوالهم وكان معتداً بنفسه فمضى حتى دخل بيت بعضهم وهم ينقلون ثياباً لهم .

قال « ما بكم ؟ »

قالوا « اخرجتنا الزنابير وغلبتنا على بيوتنا »

ففقد هذا الرجل اعصابه واخذ يرمي بنباله على الحيطان حتى افرغ ما بجعبته ، وامر خادمه فأسرج له دابته ، ولكن حزامه انقطع فشده على عجل وركب دابته وخرج الى طرقات المدائن ،

لمر به اثناء التقدم الاسلامي رجل من العرب يدعى (ابن المخارق بن شهاب) فطعنه وهو يقول «خذها وانا ابن المخارق» فقتله ومضى في سبيله[١٨]

الحادث الثاني : ـ ان رجلاً من المسلمين ادرك رجلاً من الفرس معه عصابة يتلاومون ويقولون : لماذا فررنا ؟ ثم ان الرجل الفارسي امر رجلاً من عصابته بان يقذف له كرة في الهواء ، فرماها هذا الرجل الفارسي بسهمه فاصابها (ويبدو ان ذلك كان عندهم اختبار لثبات الاعصاب) فلما رأى ذلك هاج وهاجوا معه ، ومضى امامهم حتى انتهى الى ذلك الرجل المسلم فرماه من اقرب مما كان يرمي الكرة فأخطأه (بسبب اضطراب اعصابه) حتى اتاه الرجل المسلم ففلق هامته وقال «انا ابن مشرط الحجارة» فانهزم عن الفارسي اصحابه[١٩] .

هـ) دخول سعد الايوان والقصر الابيض (*)

بعد أن سار سعد رضي الله عنه في طرقات المدائن الخالية

انتهى الى ايوان كسرى ، وهو رمز عزة الفرس وعنوان مجدهم وسطوتهم ، واخذ يقرأ قوله تبارك وتعالى «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وكذلك وأورثناها قوماً آخرين . » وتقدم رائد المسلمين (سلمان الفارسي) الذي جعله العرب المسلمون ممثلهم في دعوة اهل فارس الى الاسلام من الفرس المحاصرين في القصر الابيض الاصح (الايوان) «اني منكم في الاصل ، وانا ارق لكم . ولكم في ثلاث ادعوكم اليها . مايصلحكم ان تسلموا فاخواننا . لكم مالنا وعليكم ماعلينا . والا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء ، ان الله لايحب الخائنين . » وامهلهم ثلاثة ايام . فوافقوا في اليوم الثالث على اداء الجزية واصبحوا في ذمة المسلمين . وخرجوا من القصر الاصح (الايوان) . فدخله سعد ، ثم صلى في الايوان صلاة الفتح تاركا كل شيء في الايوان على حاله . وبعد ذلك صلى سعد اول صلاة جمعة في العراق جُمّعت جماعة بالمدائن في صفر سنة ستة عشرة .[٢٠] «وتقديرنا انها الجمعة التي صادفت ١٩ صفر ١٦هـ / ٢١ مارس ٦٣٧م أو التي تلتها ٢٦ صفر ١٦هـ / ٢٨ مارس ٦٣٧م ، وهي الارجح عندنا باعتبارها الاقرب الى موسم الفيضان الطبيعي لدجلة . »[٢١]

وبعد ان استقر سعد في الايوان ، سرح (زهرة)[٢٢] في اثار الفرس الى النهروان وسرح بمقدار من ارسله مع زهرة الى كل ناحية اخرى[٢٣] . ويشير الواقدي الى ان هاشم بن عتبة تبع المنهزمين من جنود كسرى حتى انتهى الى مرج حلوان ، وقاتل هناك كتيبة من الفرس كانت تحيط بمحفة[٢٤] مزركشة بالديباج والجوهر . وكانت المحفة تضم بنت كسرى فقتل هاشم (شاور ابن هرمز) وهو قائد هذه الكتيبة وولى اصحابه منهزمين . . .[٢٥]

و) غنائم المدائن : ـ

بعد ان ارسل سعد زهرة ورفاقه لمطاردة المنهزمين تحول من الايوان الى القصر الابيض بعد ثلاثة ايام . ووكل سعد امر الاقباض الى (عمرو بن عمرو بن مقرن) وامره بان يجمع ما في القصر والايوان والدور ، وما يأتيه به من خرج لمطاردة الهاربين ، واحصاء ذلك كله . . . والواقع ان المطاردين اصابوا الشيء الكثير من الفارين واعادوا ما حصلوا عليه فضموه الى ماقد جمع من القصر الابيض ومنازل كسرى وبقية الدور . ويرد ذكر زهرة مرة اخرى هنا ، حيث انتهى في مطاردة المنهزمين الى جسر النهروان ، فازدحم الفرس على الجسر وسقط لهم من جملة قافلتهم المنهزمة بغلٌ في الماء ، فاستماتوا في الدفاع عنه ، فاقسم زهرة ان لهذا البغل شأناً . . .

فحمل عليهم زهرة حتى ازاحهم عنه ، وإذا عليه ثياب كسرى وحليه ودروعه ذات الجواهر ووشاحه . . فرد زهرة ذلك كله الى الاقباض .[٢٦] وقد اسهب الرواة في ذكر ما حصل عليه العرب المسلمون من الغنائم ، ومعظم هؤلاء الرواة هم شهود عيان نقل عنهم المؤرخون الرواد . اي انهم ممن شارك في صنع احداث هذه المعارك . ونحن هنا سنعرض بعض ما نراه ذا فائدة كمثال على نوعية الغنائم ، وعلى سلوكية العرب في مثل هذا المجال .

فمما يدل على سمو اخلاقية العرب وامانتهم في هذا الصدد مثلاً . مانقله الطبري عن ابي عبيدة العنبري ، من ان رجلاً جاء بحق معه فدفعه الى صاحب الاقباض فاعجب به صاحب الاقباض ومن معه وقالوا «مارأينا مثل هذا قط ، مايعدله ماعندنا ولايقاربه . فقالوا : هل اخذت منه شيئاً ؟ فقال :

أما والله لولا الله لماأتيتكم به ، فعرفوا ان للرجل شأناً : فقالوا من انت ؟ فقال : لا والله لااخبركم لتحمدوني ولاغيركم ليقرضوني ، ولكن احمد الله وارضى بثوابه : فاتبعوه رجلاً حتى انتهى الى اصحابه فسأل عنه فاذا هو (عامر بن عبد قيس) »[٢٧]

ولما قدم القوم بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه قال عمر (رض) ان اقواماً ادوا هذا لذوو أمانة» فقال علي (رض) «انك عففت فعفت الرعية»[٢٨] ويبدو ان هذا السمو في الامانة لم يكن في ميدان المادة فقط ، وانما في ميدان المادة والمبدأ . فقد اخلص العرب لواجبهم العسكري بامانة ، كالامانة التي قدموا فيها ماحصلوا عليه من اموال مغرية الى بيت مال المسلمين . يدل على هذا قول سعد «والله ان الجيش لذوو أمانة ، ولولا ما سبق لاهل بدر لقلت ، وايم الله على فضل اهل بدر . لقد تتبعتُ من اقوام منهم هنات وهنات فيما احرزوا ما احسبها ولااسمعها من هؤلاء القوم . »[٢٩]

والواقع ان ما جمع من كنوز بلاد فارس واموالها شيء يفوق حد الوصف من اوان فضية وذهبية ، وثياب وجواهر ودروع ، وسيوف وديباج . . . قسمت جميعها بين العرب المسلمين[٣٠]

ز) تقسيم الانفال : ـ

وكان الذي تولى قسمة الانفال بين المجاهدين (سلمان بن ربيعة الباهلي) حيث جمع الخمس وارسله الى المدينة ، وقسم

الباقي بين المجاهدين الذين بلغ عددهم ستين الفاً . فاصاب الفارس اثني عشر الفاً .»[٥] . وكان رجال العرب جميعهم فرساناً ليس بينهم راجل ، وارسل سعد في الخمس كل شيء اراد ان يعجب منه العرب . واراد ان يخرج خمس (القطيف) [وهو بساط كسرى الذي كان اية في جمال فن الزخرفة والزركشة ، وكان طوله ستين ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً] فلم تعتدل قسمته ، فاستشار العرب في ارساله الى المدينة حيث يضعه عمر (رضي الله عنه) حيثما يجد له المكان المناسب طالما ان قسمته صعبة . فاجابوه الى ذلك فلما وردت الاخماس الى عمر قسمها في مواضعها الى ان وصل الى البساط فوجده لا ينقسم ، فاستشار من حوله في امره ، فوهبوه له وخيروه في امره ، وهو يأبى الى ان انهى الامام علي (رض الله عنه) القضية بقوله : «لم يجعل الله عملك جهلاً ويقينك شكاً ، انه ليس لك من الدنيا الا ماأعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو اكلت فافنيت ، وانك ان تبقيه اليوم على هذا لم تعدم في غد من يستحق به ماليس له . » فقال عمر (رضي الله عنه) «صدقتني ونصحتني» فامر بتوزيعه بين الناس . وكان الذي سار بالاخماس «بشير بن الخصاصية »[٦]

ح) لماذا الترقيع : -

ان الكثير من المستشرقين والمؤرخين الاجانب يحاولون دائماً الاصطيادفي الماء العكر ، فيبحثون عن بعض السلبيات في التاريخ العربي الاسلامي ، والتي هي في الاساس اعمالاً فردية ، او اعمالاً لمجموعة صغيرة شاذة لايصح ان تتخذ قاعدة او مبدأ يعمم على الجميع . ومثل هذه الاعمال الفردية او الشاذة امر طبيعي يوجد في كل مجتمعات الدنيا قديمها وحديثها . ولسنا ممن يجعل جميع شخصيات وافراد التاريخ العربي الاسلامي قديسين منزهين عن كل خطأ او زلة . ولكن ليس من العدل ايضاً ترك الايجابيات التي هي قواعد أساسية مبدئية والبحث عن توافه هنا وهناك تسهل الوصول الى مافي قلب المستشرقين من امراض . فنادراً ما نجد من مؤرخي الغرب من انصف تاريخنا ، وكثيراً مانجد منهم من يبحث عن عثرة هنا وهناك كي يجسمها ويجعل منهامصدراً للطعن والتشويه والتشكيك المتعمد .

فبروكلمان Brockelmann مثلاً يقول بصدد غنائم هذه المعركة «وكان من الطبيعي ان تعمل هذه الغنائم التي وقعت بين ايدي العرب هناك ، والتي تحدثت عنها الروايات الاسلامية حديثاً مليئاً بالعجائب ، كدافع قوي لعرب الجزيرة العربية خصوصاً عندما اصبح الامر يتطلب ارسال النجدات للتعويض عن الخسائر التي لحقت بالارواح . »[٧] . ويقصد بروكلمان - الذي يعتبر من المنصفين لتاريخنا !! - بالخسائر هنا ، الخسائر بالارواح في معركة القادسية ، رغم ان الفارق الزمني بين القادسية وتوزيع غنائم المدائن فارق كبير يصل الى اكثر من السنتين . حسب بعض الروايات ،إذ يصح قول بروكلمان لو ان الغنائم جاءت في معركة حاسمة بعد القادسية مباشرة ، لمدة زمنية وجيزة . كما ان العرب خاضوا معارك كثيرة بين القادسية والمدائن ، وكانوا في جميعها منتصرين وبشكل حاسم ، ومن دون حاجة الى امدادات . إذ كفى سعد نفسه بنفسه بعد خسائر القادسية بارسال الطلائع المتلاحقة للاحقة الفرس ، وانتظاره شهرين بعد معركة القادسية حتى يتم شفاء الجرحى فيعوض بهم عن النقص الذي حدث لديه . ولم نعثر على نص واحد يشير الى ان هناك نقصاً في عدد المقاتلين اثناء معارك مابين القادسية والمدائن لابل ان العرب كانوا يقاتلون بسيطرة واضحة تماماً .

وإذا كان بروكلمان يقصد بان غنائم المدائن كانت الدافع لعرب الجزيرة في ارسال النجدات للمشاركة في معارك مابعد فتح المدائن ، فهو غير محق ايضاً . إذ ان الجيش الذي تحرك بعد دخول المدائن الى (جلولاء) كان تعداده اثني عشر الفاً وامده سعد «بمائتي فارس ، ثم مائتين ، ثم مائتين»[٨] وهذه الاعداد يمكن تزويدها بسهولة إذا ماقارناها بعدد الجنود الكلي في المنطقة وقدره (٠٠٠ / ٦٠) مقاتل . كما لا توجد هناك روايات تقول بان العرب كانوا بحاجة ملحة الى امدادات عسكرية بعد معركة المدائن .

والظاهر ان كل ماأراده بروكلمان - رغم وصفه بانه من المنصفين لتاريخنا - هو الطعن بالمقاتل العربي من طرف خفي على اعتبار انه انسان مادي ، يفضل المادة على المبدأ ، والدنيا على الدين ، فاصبحت الغنائم المغرية دافعه القوي للالتحاق بالقوات الاسلامية بعد القادسية . وهنا نسي اوتناسى بروكلمان كل ما في تاريخ العرب من ايجابيات روحية ، فجعل الدافع المادي البحت هو الدافع الاساسي للفتوحات العربية الاسلامية . وليس بروكلمان هو الوحيد الذي اتجه هذا الاتجاه في هذا المجال فحسب ، فالدور الان للواء (كلوب Glubb) ليقول «ووجد الخليفة التقي ذو العباءة المرقعة عمر بن الخطاب نفسه المالك لجميع الممتلكات الملكية الامبراطورية

لبلاد فارس تتألق بالجواهر والذهب ، وبساط هائل لقاعة الطعام مزين بفصوص من الماس والياقوت واللآلي ، وقد نسجت بخيوط من الذهب والفضة .»[٢] . وغني عن القول هنا كلوب يغمز بصورة غير مباشرة الى مطامع في نفس عمر (رضي الله عنه) ، بحيث انه استولى لنفسه على مغانم هذه المعركة ، علماً بان جميع كتب التاريخ تؤكد بانه قسمها بين العرب المسلمين ، ولم يبق لنفسه منها شيئاً ، وكان نصيبه منها نصيب واحد من المسلمين لااقل ولااكثر وبالاضافة الى هذا وذاك فقط اتخذ بعض مؤرخي الغرب مثل (Vaglieri) ومن سار على نهجهم من بعض مؤرخي الشرق مثل (فيليب حتي Hitti) بعض الحوادث الفردية والشاذة كي يجعلوا منها تعميماً يراد به الطعن في الانسان العربي المسلم وفي مبدأه السامي . فقد اعادوا وكرروا بعض الحوادث التي تدل كما يقولون على «خشونة وجهل وسذاجة البدو الفاتحين» ومن جملتها ان العرب قسموا ذلك البساط الزاهي المدهش الملبس بقشرة من الاحجار الكريمة الى قطع وزعوها بين الجنود ، وظنوا الكافور ملحاً فاضافوه الى الطعام . واستبدل بعضهم الذهب (الصفراء) بالفضة (البيضاء)[٣] والواقع ان العرب المسلمين وكما علمنا من قبل لم يستسيغوا تقسيم البساط على الجنود بعد ان وجدوا صعوبة في تجزئته ، حتى ان سعداً ارسله الى عمر (رضي الله عنه) يضعه في المكان المناسب له في المدينة ، وان عمر قسمه بعد استشارة المسلمين وباشارة من علي (رضي الله عنه) الذي وجد ضرورة استفادة العرب المسلمين منه خوفاً من ان تغري الدنيا في مستقبل الايام احدهم فيحوله الى ملك شخصي ـ كما يتضح من النص المذكور سابقاً ـ . وماضر الا يعرف اعراب الجزيرة مادة الكافور فيضعونها ملحاً ، هل ان هذا يلغي كل حسنة لديهم ، وابن كثير يشير الى ان «بعض» الناس استعملوه في العجين بدل الملح وليس كلهم فيقول «وربما استعمله بعضهم في العجين فوجده مراً»[٤] . وما النقص في ان يستبدل بعض الاعراب الفضة بالذهب ذلك العمل الذي اعتبره (حتي) دليلاً على سذاجة العرب ، والذي يمكن ان يفسر ايضاً بانه تبديل المواد ببعضها على شكل مقايضة على شرط ان يحافظ كل نوع على قيمته ، كما نحول نحن الان العملات النقدية الورقية الكبيرة الى عملات اصغر . إذ يقول الطبري بهذا الخصوص «وقال حبيب . وقد رأيت الرجل يطوف ويقول من معه بيضاء بصفراء» وهو القول الذي اعتبره (حتي) دليلاً على سذاجة العرب . بل ان الدينوري يقول «وقال مخنف ابن سليم : لقد سمعت في ذلك اليوم (رجلاً) ينادي من يأخذ صفحة حمراء بصفحة بيضاء لصفحة من ذهب لايعلم ماهي» والبلاذري لايذكر ذلك مطلقاً ولا ابن خلدون ايضاً وهما من المؤرخين المحققين المشهود لهما . اما ابن الاثير الذي ذكر ذلك بقوله «وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين» فلا يعتبر كلامه حجة ، إذ هو من المتأخرين جداً عن المؤرخين الرواد المذكورين ، كما انه ينقل عن الطبري بشكل حرفي احياناً . والظاهر ان الطبري لم يذكر ما ذكره ابن الاثير . كما هو واضح من نص الطبري المذكور اعلاه .[٥]

ولو افترضنا جدلاً ان هذا التصرف ينطبق على بعض (اعراب) الجزيرة الموغلين في البداوة ، فلا اعتقد بانه ينطبق على اهل الحواضر في الجزيرة كمكة والمدينة واهل حواضر اليمن الذين اشتهروا بالتجارة شهرة عظيمة يعرفها القاصي والداني انذاك ، وليس من المعقول لمن يشتغل بالتجارة الا تكون له معرفة بمعدني الذهب والفضة التي كانت تصنع منها النقود الفارسية والبيزنطية والتي كانت تستعمل في التداول في منطقة الشرق الاوسط منذ أيام ماقبل الاسلام . زد على هذا ان ارض الجزيرة غنية بالمعادن ومنها الذهب والفضة التي عرفها العرب منذ زمان ما قبل الاسلام ايضاً . ويصل الامر عند (Vaglieri) الى القول «وقدم العرب الطعام الى الكلاب على اطباق من ذهب»[٦] ولاادري من اين استقى هذا المؤلف هذه المعلومات . إذ لم اعثر على مثل هذا النص ابداً لدى المؤرخين الرواد . وما في النص يحمل الرد عليه .

واخيراً اعود لاكرر ماذكرته بهذا الخصوص اولاً ، وهو اننا لاننكر وجود بعض الاعمال الفردية الخاصة التي قد تدل على سذاجة وخشونة ـ كما صورها من اراد ـ ولكن ليس طمعاً او خيانة او جشعاً او رعونة) . وهذا امر طبيعي جداً لاتخلو منه امة ، ولايعتبر مقياساً لروحية ونفسية رجال تلك الامة جميعاً أو تتخذ قاعدة للتعميم ، فحضارة العرب ودينهم القويم كانا كفيلين بتقويم النفوس .

وهكذا فتحت المدائن في اجرأ عملية عسكرية عرفها تاريخ العصور الوسطى وقد ولى عمر (رضي الله عنه) سعد بن ابي وقاص (رض الله عنه) امامة الصلاة وشؤون الحرب لكل ما غلب عليه ، وولى خراج ماسقى الفرات (سويد بن مقرن المزني) وخراج ماسقى دجلة (النعمان بن مقرن المزني)[٧]

وبقي العرب وسعد في المدائن حتى فرغوا من فتح جلولاء وحلوان ونكريت والموصل . ثم انتقلوا الى الكوفة .

(•) يتفق المؤرخون المحدثون على توقيت العبور (صفر / اذار - نيسان) ولكنهم يختلفون في سنة العبور ، (فالدرة) و (كمال) يجعلاها سنة (٦٣٧م) . في حين يجعلها (عمانش) و (كلوب Glubb سنة (٦٣٨م) ويضيف كلوب (وإذا ماقضى العرب ثمانية عشر شهراً على الجانب الغربي - يقصد في حصار بهرسير - فيكون العبور في نيسان (٦٣٩م) . وهذا امر طبيعي جاء نتيجة اختلاف المؤرخين الرواد في تحديد مدة حصار (بهرسير - سلوقية -) بين الشهرين والثمانية والعشرين شهراً . ولما كان العبور قد تم حسب مايروي الطبري وابن الاثير في صفر سنة ١٦هـ ، وهذا مايعادل في التاريخ الميلادي شهر مارس (اذار) سنة (٦٣٧م) ، فاننا نتفق مع (الدرة) و (كمال) خاصة بان العبور قد تم في اواخر شهر اذار ، وصلى سعد في المدائن اول صلاة جمعة في (٢٦ صفر ١٦هـ / ٢٨ مارس ٦٣٧م على الارجح ، خاصة وان كمال استنتج ذلك على مايبدو من اطلاعه على كتاب (التوفيقات الالهامية) . [الطبري - ابو جعفر محمد بن جرير - تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية المصرية - ط - (٤ / ١٧٠ ، ١٧٤) ، ابن الاثير - عز الدين ابي الحسن - الكامل في التاريخ - بيروت - ١٩٦٥ - (٢ / ٥١١) ، باشا - اللواء المصري محمد مختار - كتاب التوفيقات الالهامية - مصر - ١٣١١هـ - ط - ص• ، الدرة - محمود - تاريخ العرب العسكري - بيروت - ١٩٦٤ - ط - ص''' - عمانش - الفريق الركن صالح مهدي - من ذي قار الى القادسية - بغداد - ١٩٧٢ - ص''' - ، كمال - احمد عادل - فتوح الشرق بعد القادسية - بيروت - ١٩٧٤ ط - ص''' -]

Glubb — Lieutenant — General — sirJon Bagot — The Great Arab Conquest — London — 1963 — P — 202 —

(•) عند ابن الاثير (تحصدكم)

(١) الواقدي - محمد بن عمر - فتوح الاسلام لبلاد العجم وخراسان - مصر - ١٨٩١ - ص''' - ، البلاذري - احمد بن يحيى بن جابر - فتوح البلدان - القاهرة - ١٩٥٧ - (٢ / ٣٢٢ - ٣٢٣) ، الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧٠ ، ١٧٢ - ١٧٣) ، ابن الاثير - المصدر نفسه - (٢ / ٥١١ - ٥١٢) ، الدرة - المرجع نفسه - ص''' - ، عمانش - المرجع نفسه - ص''' - ، كمال المرجع نفسه - ص''' - ''' -

Muir,Sir William — The calIPhate — its Rise Decline and Fall — Beirut — 1963 — P — 128 Gulbb — oP — cit — P 202 —

(•) اصبح جيش سعد بعد القادسية جميعه تقريباً من الفرسان .

(•) عند ابن الاثير «العبور»

(٢) الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧٠) ، ابن الاثير - المصدر نفسه - (٢ / ٥١٢) ، العسلي - بسام - فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والامويين - بيروت - ١٩٧٤ ط - ص''' - ''' ، فرج - محمد - المدرسة العسكرية الاسلامية - القاهرة - ١٩٦٩ - ص''' - خطاب - اللواء الركن محمود شيت - قادة فتح العراق والجزيرة - القاهرة - بلا - ص''' - الدرة - المرجع نفسه - ص''' - Muir — oP — cit — P — 128

(٣) الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧٠) ، ابن الاثير - المصدر نفسه - (٢ / ٥١٢) ، ابن خلدون - العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت - ١٩٥٦ (٢ / ٩٣٧) ، ابن كثير - عماد الدين ابي الفدا - البداية والنهاية - مصر - ١٩٣٢ (٧ / ٦٤ - ٦٥) عون - عبد الرؤوف - الفن الحربي في صدر الاسلام - القاهرة - ١٩٦١ - ص'''

(٥) البلاذري - المصدر نفسه - (٢ / ٣٢٣) ، الدينوري - ابي حنيفة احمد بن داؤد - الاخبار الطوال - القاهرة - ١٩٦٠ - ط - ص''' -

(٦) كمال - المرجع السابق نفسه - ص''' -

(٧) العصفري - خليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق سهيل زكار - دمشق - ١٩٦٨ - (١ / ١٢٣) ، الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧١ - ١٧٢) ، ابن الاثير - المصدر نفسه - (٢ / ٥١٢) .

(•) عند الدينوري «اما والذي نفس سلمان بيده ليُغيرُن فيه ، وليبدلن» [الدينوري - المصدر نفسه - ص''' -]

(٨) الطبري - المصدر نفسه (٤ / ١٧٢) ، ابن الاثير . المصدر نفسه (٢ / ٥١٢) ، ابن كثير - المصدر نفسه (٧ / ٦٥) ، كمال - المرجع نفسه - ص''' - الدرة - المرجع نفسه - ص''' .

(•) عند الدينوري ان الرجل من طي ويسمى سليك بن عبد الله» [الدينوري - المصدر نفسه - ص''' -]

(•) عند الدينوري «ديوان أمدند ، ديوان آمدند» [المصدر نفسه - ص''']

(٩) المصدر السابق نفسه - ص''' . الطبري - المصدر نفسه (٤ / ١٧٢ - ١٧٣) ، ابن الاثير - المصدر نفسه - (٢ - ٥١٣) .

(•) عند الدينوري انه ولى «خُرزاد هُرْمُز» اخارستم المقتول بالقادسية .

(١٠) الواقدي - المصدر نفسه - ص''' - ، البلاذري - المصدر نفسه - (٢ / ٣٢٢) الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧٣) ، ابن الاثير - المصدر نفسه (٢ / ٥١٣) ، كمال - المرجع نفسه - ص''' - ''' -

(١٢) الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧٤)

(١٣) كلاوزفيتز - المرجع نفسه - ص''' -

(١٥) عمانش - المرجع نفسه - ص''' -

(١٦) ابن كثير - المصدر نفسه - (٧ / ٦٥)

(١٧) الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧٣) ، ابن الاثير - المصدر نفسه - (٢ / ٥١٣) ، ابن خلدون - المصدر نفسه - (٢ / ٩٣٨)

(١٨) الطبري - المصدر نفسه - (٤ / ١٧٤)

(١٩) المصدر نفسه (٤ / ١٧٤) ، كمال - ص''' -

(•) هناك اختلافات في موقع الايوان وموقع القصر الابيض ، حتى التبس الامر على المؤرخين فلم يفرقوا بين الاثنين . وينقل لسترانج عن اليعقوبي بان (الايوان) كان يقع في (أسْبانْبَر) التي تقع في الجانب الشرقي من نهر دجلة على بعد ميل الى الجنوب من المدائن - اما القصر الابيض فكان يرى في (المدينة العتيقة) على ميل من شمالها (وهو يقصد هنا بالمدينة العتيقة - طيسفون او المدائن -) والذي اندرس منذ المئة الرابعة (العاشرة) . ويرى لسترنج ان جميع المصنفين المتاخرين اطلقوا اسم (القصر الابيض) على (ايوان كسرى) دون تفريق ، وان الاخير هو البناء المعقود الكبير ، وهو الاثر الوحيد القائم حتى اليوم .. [اليعقوبي - احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب - البلدان - ضمن كتاب الاعلاق النفسية لابن رستة - ليدن - ١٨٩١ (٧ / ٣٢٠ - ٣٢١) . لسترنج - بلدان الخلافة الشرقية - ترجمة وتعليق بشير فرنسيس وكوركيس عواد - بغداد - ١٩٥٤ - ص''' - ''' -

(٢٠) الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٣ ـ ١٧٤) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٣ ـ ٥١٤)

(٢١) كمال ـ المرجع نفسه ـ ص" ـ

(*) اشرنا في القسم الاول من هذا البحث الى ان ذكر زهرة سيرد مرة اخرى ، وهذا يدل على انه لم تقبل في معركة (بهرسير) وانما عاش حتى زمن الحجاج حيث قتله شبيب الخارجي . وهذا يعزز راي (خطاب) من انه جُرح مما استدعى خروجه من ميدان المعارك . وربما بقي مدة من الزمن عاد بعدها لممارسة دور اقل من دوره الرئيس في المعارك السابقة بسبب ماتنتج عن اصابته

(٢٢) الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٤ ـ ١٧٥) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه (٢ / ٥١٤) ابن كثير ـ المصدر نفسه ـ (٧ / ٦٧) ، ويشير بن كثير الى انه «زهرة بن حوية» صراحة . ولايمكن ان يكون غيره ، فقد اعتاد الطبري وابن الاثير على تسميته بزهرة فقط .

(*) المحفة : غرفة دائرية كالمقصورة او الهودج .

(٢٣) الواقدي ـ المصدر نفسه ـ ص" " ـ

(٢٤) الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٥) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه (٢ / ٥١٥) ، ابن كثير ـ المصدر نفسه ـ (٧ / ٦٧)

(٢٥) الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ /١٧٦) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٧)

(٢٦) الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٧) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٧ ـ ٥١٨)

(٢٧) الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٦ ـ ١٧٧) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٧)

(٢٨) راجع الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٤ ـ ١٧٩) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٥ ـ ٥١٩)

(*) يقول الواقدي . فاصاب الفارس الذي عشر الف (دينار)بينما لم يذكر الطبري ولاابن الاثير نوعية العملة . وهذا ماجعل البعض من المحدثين يعتبرونها (الدرهم)]الواقدي ـ المصدر نفسه ـ ص" ـ الدرة ـ المصدر نفسه ـ ص" ـ Hitti — oP — cit — P — 156 كما ان هذا المقدار الذي اصاب الفارس الواحد شمل الفرسان الذين بقوا لحماية القاعدة في الفرات .

وقد اختلف المؤرخون المحدثون في تقديراتهم لما كان موجوداً في خزائن كسرى من الاموال عندما فتح العرب المدائن . معتمدين على ماأورده كل من الطبري وابن الاثير اللذين يشيران الى ان بيت مال كسرى كان يضم فيه من المال «ثلاثة الاف الف الف الف ثلاث مرات . . اخذ منها رستم عند مسيره الى القادسية النصف وبقي النصف حيث يشير الدرة الى ان هذا يعني بان ماكان موجوداً في بيت المال (ثلاثة الاف بليون درهم) . بينما يقول حتي . بان تقدير الاخباريين العرب المفرط بلغ (تسعة بلايين درهم) معتمداً على نفس النص الذي اورده الطبري وابن الاثير . الا ان ابن خلدون يقول عن «الثلاثة الاف الف الف الف مكررة ثلاث مرات» بانها «تكون جملتها ثلاثمائة الف قنطار من الدنانير» [الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧١) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٣) ، ابن خلدون ـ المصدر نفسه . (٢ / ٩٣٨) ، الدرة ـ المرجع نفسه ـ ص" .

Hitti — op — cit — p — 156

(٢٩) الواقدي ـ المصدر نفسه ـ ص" ـ ، الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٧ ـ ١٧٨) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٨ ـ ٥١٩)

(٣٠) BrocKeLmann — CarL — History of the Islamic Peoples — London — 1940 — P — 54 —

(٣١) البلاذري ـ المصدر نفسه (٢ / ٣٢٤) ، الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٩ ، ١٨١) ، ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥٢٠) .

(٣٢) GLubb — OP — cit — P — 203 —

(٣٣) Vaqlieri — Laura Veccia — University of NaPles — the Patriarchal and Umayyad CaliPhates — the Cambridge History of Islam — Holt,P.M. and Others — Cambridge — 1970 — voLume — I — Part — I — Chapter — 3 — P — 61 Hitti — OP — Cit — P — 156 — 157 —

(٣٤) ابن كثير ـ المصدر نفسه ـ (٧ / ٦٧)

(٣٥) انظر البلاذري ـ المصدر نفسه (٢ / ٣٢٢ ـ ٣٢٣) ، الدينوري ـ المصدر نفسه ـ ص" ، الطبري ـ المصدر نفسه ـ (٤ / ١٧٥) ، انظر ابن الاثير ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٥١٥) ، انظر ابن خلدون ـ المصدر نفسه ـ (٢ / ٩٣٨ ـ ٩٤٠) (٣٦) Vaglieri — OP — cit — p — 61

(٣٧) الطبري ـ المصدر نفسه ـ (١ / ١٧٩) ، ابن الاثير المصدر نفسه (٢ / ٥١٩)

* * *

خارطة تمثل مسيرة الجيش العربي الإسلامي
المتقدم من القادسية الى
المدائن